الفصل الخامس

حزب الأمة بين القومية المصرية والسيادة العثمانية

السيادة العثمانية وموقف المصريين منها — القومية المصرية وجماعة محمد عبده — حزب الامة وعلاقة مصر بالدولة العثمانية — لطفى السيد والجامعة المصرية — الحرب الطرابلسية .

نود بادىء ذى بدء أن نميز بين موقف حزب الأمة من الدولة صاحبة السيادة القانونية على مصر ، اى الدولة العثمانية ، من واقع مفهومين لهذه السيادة او السلطة : احدهما سياسى ، يتمثل فى علاقة مصر بالدولة ، وموقف كل منهما من احداث الاخرى ، وبالتالى موقف حزب الأمة من ذلك ، والآخر دينى بحكم أن تركيا ، مقر الخلافة الاسلامية او دار الخلافة ، وهذا المفهوم ذو مضمون فكرى يتعلق بمعنى القومية عند كل من مصر وتركيا ، أو باحتواء القومية الدينية لهما معا ، وليس هذا التمييز من قبيل الفصل بين مسائل السياسة وقضايا الفكر ، ذلك ان العلاقة بينهما مستمرة وحيوية وازلية ، فكثيرا ما اضافت افاعيل السياسة مضامين جديدة او مستحدثة لفكرة القومية ، وهذه بدورها تؤثر على الموقف السياسى هنا وهناك . ولكن تمييزنا هنا ينبنى على ملامح معينة لتلك الفترة بالذات ، ففى العقد الأول للقرن العشرين كانت فكرة القومية المصرية قد ثبتت اقدامها ، واخذت مفاهيم جديدة بجانب المفهوم الدينى ، أو على الأقل لم يعد الدين هو العامل الحاسم فى هذه المسألة . كما انه وعقب هذا العقد مباشرة ، بدا ان القومية العثمانية ، ذات الأساس الاسلامى ، قد بدات فى التحول نحو اتجاه تركى محض ، دافعة بذلك اسسا جديدة لقوميات تقوم على اللغة او الجنس ، بعيدا عن الأساس الدينى وبالمثل

فان التطورات الداخلية لكل قطر من اقطار الدولة العثمانية قد تطلبت أن تقف الدولة منها مواقف محددة أدت بدورها الى تغييرات فى نوعية هذه العلاقة . واخيرا فان اتجاهات الحركة الوطنية المصرية قد تراوحت بين الايمان بدعوة الجامعة الاسلامية او رفضها ، وبين الاعتراف بسلطان الدولة السياسى ومدى الولاء له ، او حتى انكاره .

وبمقتضى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، اصبحت مصر ولاية غير عادية من ولايات الدولة العثمانية ، ولم تمارس عليها الدولة من حقوق السيادة سوى تعيين واليها وتحصيل جزية سنوية ، ويخطب باسم خليفتها فى مساجد مصر ، وتسك باسمه عملتها ، وتعيين قاضى القضاة ، على أن يكون لهـا قوميسيرا عاليا فى مصر ، بمثابة تجسيد ناطق لهذه السيادة ، التى لم تتخـذ سلوكا عمليا اكثر من اصدار فرمانات التولية والخلع لحكام مصر من اسرة محمد على . وحين ارادت تأكيد حريتها فى تغيير حدود مصر ، طبقا لسيادتها القانونية عليها ، فشلت فى ذلك كما سبق لهـا أن منيت بنفس الفشل حين لعبت دور المفاوض لاجلاء انجلترا عن مصر ، ليثبت بعد ذلك أن هذه السيادة عمليا تعد شيئا شبه وهمى ، وكان المصريون ، باستثناء فريق منهم ، قانعين بذلك او مؤيدين لها ، ومغلوبين على امرهم فى كل الأحـوال ، وان لم ينبعث رضاهم من تفريطهم فى حقوق مصر او حرصهم على ارضاء دولة الخلافة ، بل كان انسياقا عاطفيا ـــ دينيا فى مواجهة العدو المخالف لهم فى الدين بالرغم من أن تركيا لم يبد انها ستقوم بعمل جدى تجاه الاحتلال ، وكان امـرا طبيعيا أن تقوم الحركة الوطنية المصرية من منطلق اسلامى بالدرجة الأولى فى مجتمع يموج بالولاء لخليفة المسلمين ، فالتيار القومى لم يكن قد اشتد عوده بعـد والجيل الذى كان عليه أن يعبر عنه لم يزل يتحسس موقع اقدامه فى الحياة السياسية ، كما كانت دعوة السلطان عبد الحميد للجامعة الاسلامية قـد وجدت صداها فى مصر ، التى دخل فى يقينها ان عصيانها لدولة الخلافة قـد التى بها تحت اقدام الانجليز ومن ثم كان عليها استدراك ذلك فيما بعد .

وبالرغم من أن الولاء للدولة العثمانية قـد انبعث اساسـا من واقع

دينى الا أن التعبير عنه قد جاء بسبب سياسى مؤداه اثبات عدم شرعية الاحتلال الانجليزى بالتأكيد على شرعية وقانونية السيادة العثمانية على مصر ، كما أن مشكلة الحركة الوطنية المصرية آنئذ ليست فى علاقتها بالجامعة الاسلامية ، فالدين والوطنية توأمان عند مصطفى كامل ، بل فى مواجهة الاحتلال البريطانى الجاثم على صدرها .

وقد عبرت الحركة الوطنية الجديدة عن موقفها من الدولة العثمانية تعبيرا نظريا ذا مضمون دينى ، فمثلا نجد أن أحد رجالها وهو محمد فريد قد الف كتابا عن تاريخ الدولة العلية عام ١٨٩٤ هدفه تبيان فضل الدولة فى ابقاء دولة الاسلام ، والدفاع عنه ضد دول اوربا المسيحية ، أوضح فيه أن المسألة الشرقية دينية لا سياسية(١) .

ولكن العلاقة اتخذت موقفا عمليا عندما اشتعلت الحرب التركية ـ اليونانية (١٨٩٧) حيث تألفت لجنة مصرية لجمع التبرعات لجرحى الجيش التركى(٢) وقطعت العلاقات مع قنصل اليونان تبعا لأوامر الدولة(٣) . وكان فى تأكيد تبعية مصر للدولة العثمانية ـ كما يقول محمد فريد ـ هذه التبعية التى لا تفيد مصر أقل فائدة ادبية ، تقوية حجة المعارضين للانجليز فى مصر « فلو ان الدولة العلية غير قادرة على الزام الانجليز بالخروج من مصر لكن لا يخفى ما فى تأييد روابط التبعية من غل أيدى الانكليز عن ابتلاع مصر صفقة

---

(١) مذكرات محمد فريد ، القسم الاول ، ك ٤ ، ص ٧٣ غير منشورة ومودعة بدار الوثائق القومية .

(٢) مذكرات ابراهيم الهلباوى ص ٤٦ ، وكان السكرتير العام لرئيس اللجنة هو رياض باشا .

(٣) مذكرات محمد فريد ، القسم الاول ، ك ٥ ، ص ١٣٠ « فتأكدت بذلك تابعيتنا لها أمام العالم .. وقد أرسل مصطفى كامل للسلطان يطلب منه أن يعلق خروج العساكر العثمانية من بلاد اليونان على خروج الانجليز من مصر .. » ص ١٣١ . وقد اخذت بريطانيا وفرنسا وروسيا على عواتقهم حماية مصالح اليونان فى مصر . أنظر :
FO. 407-177, No. 263, 1911, p. 141.

وهى مذكرة من ماركز الى الخارجية البريطانية فى ١٩ أكتوبر ١٩١١ حول موقف المصريين خلال الحرب التركية اليونانية ، ويضيف أن كرومر قد أشار بتقسيم مصر بين الدول الثلاث لهذا الغرض .

واحدة »(٤) . ومع هذا فقد ميز الوطنيون بين عدائهم للطبقة التركية المقيمة بين ظهرانيهم واحتقارها للمصريين ، وبين الولاء لتركيا ، صاحبة السيادة فى ظل حكم وطنى ، فقد أبدى محمد فريد سروره من تعيين الشبان المصريين فى مناصب الدولة الادارية لانهم يدركون معنى الوطنيـة وحقوق الوطنية ، ولا يحتقرون المصرى ولا يضطهدونه كالباشوات الذين من أصل تركى(٥) .

وقد اشترك الوطنيـون المصريون اشتراكا فعليا فى مختلف انشـطة الجامعة الاسلامية ، ففى عام ١٩٠٠ انفردت صـحيفة اللواء بتدبير حملة لجمع التبرعات لسكة حديد الحجاز ، بل ان التقارير البريطانية قـد اتهمتها بأنها كانت على اتصال ببعض الجمعيات السرية الداعية للجامعة الاسلامية(٦) . وقـد بادل السـلطان الزعمـاء الوطنيين ودا بود ، فأغدق عليهم الرتب والنياشين ، وفتح لهم ابواب « يلدز » عنـد زياراتهم لعاصمته التى كانت مزارا ومصيفا لكثير من وجهائهم(٧) ، وحين أشيع أن السلطان قـد يشعل ثورة اسلامية للدفاع عن الامبراطورية ، سارعت الصحف الاسلامية فى مصر بنشر المقـالات لجـذب اهتمام الناس اسـتجابة لمـا عسى ان يطلب السلطان(٨) .

---

(٤) مذكرات محمد فريد ، القسم الاول ، ك ١ ، ص ١٣ ، ك ٤ ، ص ٧٥ ، وكذلك مصطفى كامل : رسائل مصرية فرنسية ، ص ٤٧ ويضيف « ان من السياسة الاهلية ان نكون مع تركيا بما أن الانكليز محتلون وطننا العزيز » .

(٥) مذكرات محمد فريد ، القسم الاول ، ك ٤ ، ص ٨٨ وهيكل : مذكرات في السياسة ج ١ ، ص ٢٠ الذى أضاف « كانوا يزدرون المصريين أشد الازدراء ويحقرونهم أشد التحقير ويضربونهم بالسياط .. » .

(٦) يونان لبيب : الحياة الحزبية في مصر ، ص ٢٢٩ وبالرغم من ذلك ليس هناك دليل على أن مصطفى كامل كان يتوقع حقا أن تحرر الامبراطورية العثمانية قطرها المصرى من الغاصبين البريطانيين (جولد شمدت : الحزب الوطنى المصرى ، (p. 90)

(٧) فقاسم أمين له بيت هنـاك ويرى أن مصر استفادت من الاتراك واقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة العادات الحسنة والصفات الادبية (كلماته ص ٢٥) ولملك حفنى ناصف تزور الاستانة للعلاج وتصادق الاديبات التركيات (آثارها ص ٢٥ ، ٥٩) وتدعو الى اتباع عادة نساء الآستانة في الحجاب والخروج (منصور فهمى : محاضرات عن مى ، ص ٩١) .

(٨) FO. 407, No. 132, part LXIII. 9 Dec. 1905, No. 203 p. 363

ويذكر كرومر في رسالته هذه الى لانسدون أن أكثر الجرائد اهتماما هى اللواء أشد الداعين الى التمسك بحقوق الخلافة .

وتمثل حادثة طابة ١٩٠٦ قمة النضج بالنسبة لموقف الحركة الوطنية المصرية من دولة الخلافة ، فقد منحت الدولة العثمانية تأييدا عظيما ، رغم ما يبدو من أن الدولة تبغى الاقتطاع من ممتلكات مصر وتخومها ، وان بريطانيا هى التى تحول دون ذلك ، وكان هذا التأييد ينطلق من أساسين يتعلقان بموقف القوى الوطنية من كل من تركيا وبريطانيا ، بل هو تعبير حاد عن علاقتها بكل منهما ، حين ووجهت بكلتاهما فى وقت واحد ، بيد أن مصر باطلاقها لم تكن ظهيرا للدولة ، فهناك فئة لم تكن تكن نفس الحماسة لدولة الخلافة ، وبعيدا عن اتهامها بمشايعة الانجليز ، فانها اعتبرت موقفها ، الذى وضعها فى معسكر الانجليز ، قد انبعث أصلا من ارضية قومية مصرية صحيحة .

* * *

وكان تطور مفهوم القومية المصرية حتى بداية القرن قد أعطى هذا الفريق من المصريين حجة قوية للوقوف فى وجه اطماع تركيا ، فاعتمدوا على سند قانونى حددته معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، والتى باتت تمثل حدا أدنى لعلاقة مصر بتركيا ، وكان نصف القرن التالى للمعاهدة قد شهد نموا كبيرا لفكرة القومية المصرية ، والتى نبهت الحملة الفرنسية الى امكانية قيام دولة جديدة على أساسها وجاءت انجازات محمد على لتقيم هيكلها ، هذا بالاضافة الى ما أحدثه الاتصال بأوربا وفكر الثورة الفرنسية ، مما بدا اثره فى كتابات المفكرين المصريين ، بدءا بالطهطاوى ، أول مصرى رأى فى مصر أمة متميزة عن الجسم العام للمجتمع الاسلامى(٩) وحتى أحمد لطفى السيد ، وبينهما ساهم محمد عبده ، وعبد الله النديم ، واديب اسحق ، وحسين المرصفى ، وغيرهم ، فى تكوين تلك المشاعر التى ما لبثت أن تراكمت حول مفهوم الأمة بالمعنى الحديث ، وكونت الحالة النفسية المعروفة بالقومية ، وبدا أثرها

---

(٩) Ahmed, J.M. The Intellectual Origins. p. 15.

واضحا فى كتاباتهم(١٠) ، وكان ذلك كله من خلال ما قدمه اسماعيل من قنوات ثقافية ، بالاضافة الى مواقفه التى ساعدت على ابراز مصر كدولة قومية فى عهده(١١) وقد تحددت عناصر القومية المصرية من ينبوعين : أولهما : العلمانية اللبرالية التى تميزت بها أوربا فى القرن التاسع عشر ، والتى كان استيعابها وقبولها مباشرا ، وثانيهما : حركة الاصلاح الاسلامية التى صاغ مفاهيمها محمد عبده ورشيد رضا(١٢) .

وقد ساهم محمد عبده فى بلورة القومية المصرية بالرغم من سيادة الشعور الدينى العام فى عصره ، والذى بدا كما لو كان قد اذاب كافة عناصر القومية الاخرى فى شعوره فذكر محمد عبده عام ١٨٧٦ أن الشعب المصرى لا يفنى ولا يندغم فى غيره من الشعوب ، التى تغلبت على حكومته وقد يندغم الشعب المتغلب عليه فيه ، بل يعيش ويحفظ مشخصاته القومية ، والحكومات أعراض تزول وهو لا يزول ، وكان اهتمامه بالاكتشافات الأثرية متمما لوعيه بقومية مصر . فوجدها مناسبة للتأكيد على الجوانب المتحضرة للشعب المصرى ، كما كان أول من دعم الفكرة القومية بسعى للاصلاح الاجتماعى والدينى دعما وثيقا بحيث صاغ تلك الوطنية فى قالب حى متطور ذى برامج

---

(١٠) فظهرت جريدة تحمل اسم الوطن (١٨٧٧) وظهر ما عرف بالحزب الوطنى القديم (١٨٧٩) وألف النديم رواية عنوانها « الوطن وطالع التوفيق » ١٨٨٠ ونشرت الوقائع وهى الجريدة الرسمية مقالات تحمل عناوين القومية مثلا (العدد ١٠٥٤ فى ٦ مارس ١٨٨١) وقد ألف الشيخ حسين المرصفى كتابا بعنوان « رسالة الكلم الثمان » فى الفكر السياسى يعالج ضمن موضوعاته أفكارا حول الوطن والوطنية (الكلم الثمان ص ٢٥) .

(١١) كالامبراطورية المصرية فى افريقيا ، فى عهد اسماعيل ومواقفه من السلطان العثمانى وبعوثه العلمية والنهضة الصحافية التى عرفتها مصر فى زمنه .

(١٢) البرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ، ص ٤١٠ . ويرى Safran أن أفكار محمد عبده لم تكن نبعا اساسيا استمد منه القوميون المصريون أفكارهم وان كانوا بدون شك قد استمدوا منها اطمئنانا وتأييدا ويعلل ذلك بأنهم نبذوا تحكم الدين كاساس للأمة (فى كتابه : (Egypt in Search of Political Community p. 85).

والواقع أنهم اتخذوها كنقطة بداية باعتبارها اصلاحية ومستنيرة ثم انه كان واحدا من الذين عبروا من القومية المصرية وساهموا فى تكوينها دونما صدام بينها وبين الامة الاسلامية وكان طبيعيا بالاضافة الى تكوينهم الثقافى وظروف عصرهم أن يتجهوا فيما بعد نحو العلمانية المرنة .

اجتماعية واصلاحية تشمل مختلف الحقول(١٢) ، الا انه لم يكن يرى تعارضا بين القومية المصرية والقومية الدينية ، داخل اطار الدولة العثمانية ، التى ارتبطت فى ذهنه بالخلافة كنظام اسلامى ، فحتى ذلك الحين لم يكن ثمة مجال للصدام بينهما ، بل انه حتى اكتوبر عام ١٨٨١ كان يرى ان « الدولة العلية لها علينا حق السيادة والولاية ولها منا ما خولتنا الامتيازات التى منحتنا اياها بمقتضى الفرمانات العلية(١٤) . فكأنه وقد احس بالضغط الأوربى على مصر ، لا يريد أن يفتح بابا للتدخل الأوربى ، كما لا يريد أن يدع مجالا للخلاف بين مصر وتركيا فى الوقت الذى كسب فيه العرابيون الجولة الأولى ، لكن اكتشاف المؤامرة الشركسية قد اشرب محمد عبده كراهية عميقة للاتراك ، وقد ذكر لبلنت ان كل مصرى يكره الأتراك ويمقت ذكرهم وليس هناك من لا يفكر فى تجريد سيفه للهجوم عليهم اذا ما فكروا فى النزول الى مصر ، حيث تكون فرصتنا لنحقق الاستقلال التام(١٥) . وعندما تألفت وزارة راغب باشا التى ارضت الأتراك والشراكسة ووقعت فظائع الاسكندرية ازداد تراكم كراهية الأتراك فى نفس محمد عبده ، وقد روى بلنت أنه سمع البارودى وعبده ونديم يلعنون السلاطين والأمم التركية من عهد جنكيز خان وهولاكو حتى عبد الحميد(١٦) ، وقد أساءت مواقف السلطان محمد عبده وهو المصلح الدينى المستنير ، فاتهم عبد الحميد بأنه أساء الى الخلافة وذكر أن ما حاوله من الانتفاع بلقب الخلافة،وبمنصبها الروحى لايرجى منه ادنى فائدة للمسلمين لجهله وجهل رجاله بمعنى الخلافة وبالوسائل التى يمكن بها احياء منصبها والانتفاع به واوضح ان الاسرة العثمانية باتت غير اهل لامارة

---

(١٣) أنيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ، ص ٦٨ (النص عن الاهرام ٣ سبتمبر ١٨٧٦) وفاروق أبو زيد : الصحافة وقضايا الفكر الحر ، ص ٨١ .

(١٤) فاروق أبو زيد : الصحافة وقضايا الفكر الحر ، ص ١٠٩ عن وقائع ٢٦ أكتوبر ١٨٨١ وقد ذكر ذلك في معرض رده على الجرائد التى توقع بين مصر والباب العالى وصورت مجيء بعثة نظامى على أنها محاولة للنيل من الامتيازات الاستقلالية .

(١٥) Blunt, W.S. Secret History., p. 251.

(١٦) Ibid, p. 344.

المسلمين (١٧) وحين كان منفيا فى سوريا على اثر الحكم عليه بتهمة «المرابية» عاد الى اتجاهه الاصلاحى ، وتراجع عن مواقفه من السلطان ، ان لم يكن قد اعتذر عنها ، وذكر فى رسالته الى والى حلب ان المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين والكافلة لبقاء حوزته (١٨) ، ويبدو انه كوفىء على ذلك باشتراك السلطات فى الوساطات لدى الخديوى توفيق للعفو عنه واعادته الى مصر (١٩) ، وان كان محمد عبده قد فسر موقفه هذا فيما بعد (١٨٩٧) حين فصل بين موقفه من السلطان وبين خشيته على الدين ، فقال « وانا ايضا اكره اعمال السلطان ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءا ، فانها سياج فى الجملة اذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود بل اقل من اليهود » (٢٠) ويظل الشيخ على احتقاره لآل عثمان حتى السنوات الأخيرة من عمره ، ولما زار جنيف (١٩٠١) كان يتحدث الى بعض المصريين هناك — ومنهم لطفى السيد — ضد السلطان (٢١) .

وقد سمحت صلات محمد عبده برجال الاحتلال باحتداد موقفه ازاء السلطان والسيادة العثمانية ، وقد بدأ موقف بريطانيا تجاه هذه السيادة واضحا خلال الأزمة التى عرفت بفرمان التولية عام ١٨٩٢ ، وعندما زار محمد عبده الآستانة (١٩٠١) كانت فى جيبه توصية من اللورد كرومر الى سفير انجلترا فى الآستانة ليستخدمها عند الضرورة (٢٢) ، وبعد وفاة محمد

---

(١٧) رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ، ص ٩١٢ .
Blunt, op. cit. p. 106.

(١٨) رشيد رضا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٠٩ وآدمز : الاسلام والتجديد ، ص ٥٩ .

(١٩) عثمان أمين : محمد عبده ، ص ١٠٦ .

(٢٠) رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ، ص ٩١٢ .

(٢١) أحمد شفيق : مذكراتى في نصف قرن ، ج ٢ ، م (٢) ، ص ٣٨٢ ويضيف : كما أخبرنى تحسين بك سفير الدولة في انجلترا انه أرسل برقية بأنه قد وزعت نشرات في مصر ضد الادارة التركية .

(٢٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، م (١) ، ص ٣٧٩ .

عبده ، اتضح موقف بريطانيا أكثر فى أزمة طابة ١٩٠٦ حيث أدرك كرومر أنه الى جانب حركة الجامعة الاسلامية توجد حركة وطنية ، وأن الحركتين ممتزجتان وان كانت حركة الجامعة الاسلامية أقوى ، الا أن فكرة الجامعة الوطنية أو القومية المصرية قد ازدهرت وآتت ثمارها (٢٣) وقد وصف كرومر اتباع محمد عبده بأنهم تلك الفئة التى تمثل القومية المصرية وانهم وطنيون صادقون يبغون ترقية مصالح بلدهم وأبناء دينهم ، ولكنهم مجردين من صفة الجامعة الاسلامية (٢٤) .

وحتى الاحتلال البريطانى لمصر لم تكن مشكلة العلاقة بين الأمة الاسلامية والقومية المصرية قد أثيرت بالشكل الذى بدت به عقب الاحتلال مباشرة، وآخذين فى الاعتبار القدر الذى بلغته فكرة القومية المصرية من النضج، وتواكب ذلك مع الأزمات السياسية التى حدثت بعد الاحتلال ، التى اذكتها سلطاته لا بقصد تقوية فكرة القومية المصرية لذاتها ولكن لتواجه مصر الدولة العثمانية وتنفصل عنها ، فان المشكلة أثيرت ، ووجد أطرافها الثلاثة فى حادثة طابة متنفسا لهم فكانت نقطة تفكير ذلك الفريق من اتباع محمد عبده ، فى اصدار « الجريدة » والتعبير عن موقف « مصرى » فى مواجهة (اطماع) الدولة العثمانية ، لذا يعتبر صدور الجريدة بدرجة ما — أول موقف عملى لهذه الجماعة ازاء سيادة الدولة العثمانية على مصر .

وفى الجانب الفكرى اصبحت فكرة القومية المصرية مألوفة ومقبولة لدى الجميع ، فى الوقت الذى بدت فيه فكرة الجامعة الاسلامية مجرد فكرة رومانسية ومن ثم كان تركيزهم الرئيسى على شئون مصر المحلية ، باعتبارهم مصريين يحسون بالولاء لمجتمع لم يكن من الممكن لهم ان يعتبروه جزءا من الأمة الاسلامية فقط (٢٥) وكان نفر من هؤلاء قد عبروا عن تلك النظرة من

---

(٢٣) (Egypt, No. 1, 1906, p. 7.
ويقصد بذلك موقف جماعة محمد عبده من ازمة طابة .

(٢٤) Ibid, p. 8.

(٢٥) Wendell, Ch. The Evolution of the Egyptian National p. 203, and Ahmed, J.M. The Intellectual Origins, p. 61.

خلال كتاباتهم ، فأحمد فتحى زغلول ، قد أهدى ترجمته لكتاب ديمولان « سر تقدم الانجليز » الى الناطقين بالضاد عموما ، والى المصريين خصوصا (٢٦) ، كما روى قاسم امين قصة الطفل الفرنسى الذى رآه يرفع قبعته ليحيى علم بلاده ، وقد علق على ذلك موضحا كيفية غرس « الشعور الوطنى » محللا أسباب انحطاطه عند المصريين (٢٧) ، ويرد على الدوق داركور بكتابه « مصر والمصريين » الذى يؤكد المعانى السابقة ، كما تمتلىء « كلماته » بالاحاديث حول الاحاسيس الوطنية فى مصر (٢٨) .

وكانت الجريدة تعنى بمقالاتها العديدة التى تصدرت اعدادها الاولى بعنوان « الوطنية فى مصر » (٢٩) تفسير عناصر تلك القومية او بمعنى آخر التركيز على الوجه الآخر لعلاقة مصر بالدولة ، أى الجامعة الوطنية ، فى مقابل الجامعة الاسلامية او « البانسلامزم » التى منحتها تعريفا جديدا يختلف عن التعريف الشائع فى عصرها « والذى أكسبته أوروبا مفهوما صليبيا » فالجامعة الاسلامية عند جماعة « الجريدة » شعور المسلمين بالافتقار الى الحرية والاستقلال وانها واجب دينى وليس تعصبا دينيا ، وسر نهضة المصريين الحديثة انها تلبية لداعى البانسلامزم ، او هى بانسلامزم محلى (٣٠) فحصرت بذلك نطاق هذه الجامعة فى المفهوم الدينى ، ونأت بهذا عن التعصب، فالمسلمون لم يتفقوا اتفاقا سياسيا بعد عهد عمر ، بل ولم يتفقوا اتفاقا دينيا بعد عهد على (٣١) ، ولم يكن هذا الحديث موجها الى اوروبا ، التى تلفظ بالجامعة الاسلامية ، بقدر ما كان موجها الى السيادة العثمانية ذاتها ومؤيديها فى مصر ، وقد أكدت الجريدة موقفها بتأييدها لمؤتمر اسلامى يعقد

---

(٢٦) أدمون ديمولان : سر تقدم الانكليز السكسونيين ، ص ٢٧ عن مقدمة فتحى زغلول.

(٢٧) قاسم أمين : المرأة الجديدة ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢٨) قاسم أمين : كلمات ، ص ٣٨ « فايما قرأت وفي أى مكان وجدت لا أسمع الا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفانى فى خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة وحزب الوطن حتى صار حب الوطن دينا جديدا من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر » .

(٢٩) انظر الاعداد الاولى من الجريدة وافتتاحيات معظمها تحمل نفس العنوان وهى بدون توقيع وان كان مضمونها وروح نصها يؤكدان أنها من انشاء لطفى السيد .

(٣٠) الجريدة ٥١ في ٥٩ مايو ١٩٠٧ .

(٣١) الجريدة ١٥٦ في ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ (اللغط حول الجامعة الاسلامية) .

فى القاهرة لاصلاح شئون المسلمين الاجتماعية دعا اليه اسماعيل بك غصبرنسكى صاحب جريدة « ترجمان » . (٣٢) الى جانب سعيها الى ابرازا الجنسية المصرية ، منتهزة فرصة رفض الحكومة المصرية التصريح لواحد من المترجمين فى قنصلية ايطاليا بالتجنس بالايطالية ، واحالتها ذلك على الاستانة (٣٣) ، فبرغم تأييدها لمسلك الحكومة ، فانها اتخذت من ذلك فرصة للحديث عن الجنسية المصرية وابرازها من قاعدة أنه يجوز للشخص ان يكون له جنسيتان جنسية عامة تربطه بدولة كبيرة ، وجنسية خاصة ، وأكدت أن كل الدول تعتبر مصر حكومة مستقلة وانها تعاملها كما تعامل الحكومات المستقلة (٣٤) .

* * *

وعندما أعلن حزب الأمة مبادئه لم يشر الى موقفه من علاقة مصر بالدولة العثمانية أو علاقة ذلك بقضية استقلال مصر ، وحين اتهمته اللواء بأنه يوزع منشورات تدعو للاستقلال التام ، وأنه بذلك يطلب فصل مصر عن الدولة ردت الجريدة بأن « الاستقلال الذى يطلبه هو أن تصبح الحكومة مستقلة استقلالا تاما » تحت سيادة الباب العالى « وكاملا » بالنسبة للدول الأخرى ، وحددت معناه « بالأوتونومى » وهو غير الاستقلال الكامل « الاندباندنس » (٣٥) ، ولعل الحزب رأى أن اثارة هذه المسألة أمر سابق لأوانه ، خاصة وهو فى دور التكوين ، الأمر الذى قد ينفر الناس منه ، لذلك عمد الى التحايل اللفظى ، وأمعنت جريدته فى مداراة موقفه وأوضحت أنه بين السلطنة العثمانية ومصر علاقات متينة العرى غير علاقة التبوعية أو

---

(٣٢) الجريدة أعداد ٢٠١ ، ٢٠٢ ، في ١ ، ٢ نوفمبر ، ٢١٥ ، في ٢٠ نوفمبر ١٩٠٧

(٣٣) الاخبار ١٢١ في أول أغسطس ١٩٠٧ وقد استنكرت الاخبار موقف الجريدة التى ردت عليها .

(٣٤) الجريدة ٢٦ في ٥ اغسطس ١٩٠٧ واضافت « لا نزاع في أن كل مصرى عثمانى ولكن لا يكفى أن يكون الشخص عثمانيا تسرى عليه أحكام القرعة أو القانون النظامى بل يجب أن يكون مصريا ولا يكون العثمانى مصريا الا اذا توافرت فيه الشروط المبينة في دكريتو ٢٩ يونيو ١٩٠٠ » .

(٣٥) الجريدة ٢١١ في ١٦ نوفمبر ١٩٠٧ .

السيادة السياسية ، وربما كانت العلاقة التجارية أمتن من تلك العلاقات عمرة وأكثرها فائدة للبلدين (٣٦) ، حتى لقد ابدى مراسل « التيمس » دهشته من انحياز الجريدة ، فى مقال كتبته عن فوز الدولة العلية السياسى على انجلترا ، الى الدولة العثمانية والدول التى أيدتها فى المسألة المقدونية ، فتساءلت الجريدة : وهل أتينا أمرا نكرا ، وهل الدولة غريبة عنا لا تجمعنا بها جامعة السيادة ولا الجامعة الشرقية ولا الدينية (٣٧) . ويفهم من هذا أن الجريدة قد اهملت العلاقة السياسية ، ان لم تكن قد اشارت الى تفاهتها (٣٨) مع اقرارها بوجودها ، ويؤكد هذا الفهم ما اوضحه لطفى السيد حين قال فى يأس « علقنا آمالنا أول الأمر بالاستانة ، أى بحكومة جلالة السلطان صاحبة السيادة علينا وبقينا ننتظر نتائج ما يعمله لنا الاتراك فلم ننل من وراء ذلك شيئا ... » (٣٩) .

وكان وقوع الانقلاب الدستورى فى تركيا فى يوليو ١٩٠٨ بمثابة النهاية لنشاط السلطان عبد الحميد بشأن الجامعة الاسلامية كما كان نقطة بداية لتقلص نفوذ الدولة العثمانية وانكفائها الى الداخل ، وتحول القومية العثمانية الى قومية تركية بفضل دعاة الجامعة الطورانية داخل جمعية الاتحاد والترقى الذين كانوا يرون وجوب انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية لتظل تركيا بلدا تركيا بقومية تركية خالصة (٤٠) الأمر الذى ادى الى انتشار

---

(٣٦) الجريدة ٢٢٢ في ٢٨ نوفمبر ١٩٠٧ .

(٣٧) الجريدة ٢١٣ في ١٩ مارس ١٩٠٨ .

(٣٨) وقد وصفها لطفى السيد بانها سيادة اللاطونية قد تنفع ولكن يستحيل ان تضرنا مطلقا (الجريدة ٤٩٠ في ١٤ أكتوبر ١٩٠٨) .

(٣٩) أحمد لطفى السيد : صفحات مطوية ، ص ٧ (عن الجريدة في ١٧ مايو ١٩٠٨).

(٤٠) رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ عن مقدمة نقولا زيادة ، ص ٢٤ ، وقد لخص شفيق غربال ما جرى للدولة من وقت اعلان الدستور بضم النمسا لولايتى البوسنة والهرسك ، استقلال بلغاريا والجبل الاسود ، والعربان البلقانيتان الاولى والثانية ، وارتداد الراية العثمانية نحو القسطنطينية وغزو ايطاليا لطرابلس الغرب وبرقة واجلاء العثمانيين عنهما وعن بعض جزر الارخبيل والبحر المتوسط (تاريخ المفاوضات ، ج ١ ، ص ٣٣) اما الجمعيات السرية العربية فمنها القحطانية ١٩٠٩ ، الفتاة ١٩١١ ، العهد ١٩١٤ (حوراني : الفكر العربي ، ص ٣٤٠) .

الجمعيات العربية السرية والعلنية الساعية للانفصال عن الدولة كالمنتدى الأدبي والجمعية القحطانية والعهد والعربية الفتاة وغيرها (٤١) .

وقد أعطى ذلك كله حزب الأمة موقفا اكثر ملاءمة للجهر بآرائه ومواقفه من الدولة العثمانية ، خاصة وقد جهر حزب تركيا الفتاة باحتقاره لمقاصد الحزب الوطني ، ونشاطاته الاسلامية ولأساليبه التي يمارسها بشأن المغالاة والتطرف في الجامعة الدينية (٤٢) لذا كان طبيعيا ان يهلل حزب الامة للدستور العثماني فنقلت جريدته نصه ونبأ صدور الارادة الشاهانية باعادة مجلس المبعوثان واسهبت في وصف أفراح الدستور (٤٣) ، بيد ان هذا الفرح كان من منطلق الفرح للجار اذ يصيبه الخير ، ولأن الدستور — كما تقول الجريدة — يبطل حجة القائلين بأن شعوب الشرق لا تفهم الا الحكومة الشخصية ، وجاء حديث انور باشا بطل الدستور ، الى مكاتب التيمس الذي قال فيه ان حزب تركيا الفتاة يؤلف جيشا اسلاميا ، وان مصر لا تدخل في دائرة اعماله ، وانه لا يتعرض بشيء لما جرى من الاعمال الباهرة فيها بيد الانجليز ، جاء هذا الحديث ليعطي حزب الأمة حجة قوية لموقفه فاعلن ان قاعدة الاعمال السياسية هي مبدأ « المصرية » دون غيرها كوحدة الاعتقاد أو الجنس ، وأن كل سياسة لا يكون اساسها الوطنية والمنفعة فهي سياسة شلى ، كما اتخذ الحزب من هذه الأقوال أيضا حجة لدى أولئك الذين يتقربون من تركيا ويقولون ان مصر جزء منها ولها ان ترسل عنها مندوبين الى مجلس المبعوثان أو انها يجب ان تعتمد في استقلالها على تركيا أو الأحرار (٤٤) كما اكدت « الجريدة » أن الدستور العثماني قاصر على الولايات العثمانية التي لم

---

(٤١) رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ٢٦ — ٢٩ ، وحاشية ص ٣٧ لمزيد من التفصيلات حول هذه الجمعيات .

(٤٢) Egypt, No. 1, 1908, p. 2.

وقد أنكر محمد فريد دعوة ارسال مصر مندوبين عنها في مجلس المبعوثان وقال « نحن مصريون قبل كل شيء » (اللواء اول سبتمبر ١٩٠٨) .

(٤٣) انظر الجريدة ٤٢٠ في ٢٥ يوليو ١٩٠٨ والاعداد التي تليه .

(٤٤) الجريدة ٤٥٤ ، ٤٥٥ في ٢ ، ٣ سبتمبر ١٩٠٨ .

تحصل على امتياز الاستقلال الادارى الذى حصلت عليه مصر منذ ١٨٤٠ ، فمصر مستقلة اداريا ، ولم ترسل مندوبين عنها منذ مجلس ١٨٧٧ (٤٥) .

وقد رأى حزب الأمة فى وفاق تركيا وبريطانيا ، خلال أزمة البوسنة والهرسك فرصة اخرى لتعميق الهوة بين مصالح مصر ومصالح الدولة العثمانية فذكرت جريدته ان مساعدة انجلترا لتركيا خلال الأزمة لن يكون مجانا ، وحذرت من أن يكون الثمن هو التضحية بمصر ، ذلك ان صداقات الدول تقوم على المصلحة قبل كل شىء ، وان الباب العالى لا يعز عليه أن يضحى كثيرا من حقوق مصر فى الاستقلال كلما كانت هذه التضحية لمصلحته ، وكانت « الجريدة » بذلك تنبه بأن على المصريين أن يبحثوا عن مصالحهم فى صراع المصالح « فالدول اليوم كشركات تجارية عظيمة » (٤٦) وذكرتهم بأن الموقف الحرج الذى تقف فيه السلطنة لدى أوروبا لا يدعها تفكر فى غير نفسها « فلتفكر اذا الأمة المصرية فى نفسها أيضا » (٤٧) .

وجاءت ثورة تركيا الفتاة مشروعا تركيا صرفا ، وثورة قومية استهدفت الاطاحة بنظام عبد الحميد ، لتحل محله حكومة أقوى قد تستطيع أن تضع

---

(٤٥) الجريدة ٤٢٢ في ٢٧ يوليو ١٩٠٨ وذكرت في نفس العدد خبر اجتماع حزب الأمة وارسال برقيتين الى الصدر الأعظم ورئيس قرناء الحضرة الشاهانية للهنئة بالدستور ، وكذلك ترجمت لأبطال الدستور مدحت باشا والامير صباح الدين وسعيد باشا كشك في اعداد ٤٢٣ ، ٤٢٤ في ٢٨ ، ٢٩ يوليو ١٩٠٨ وفي العدد ٤٣٨ في ١٥ اغسطس ١٩٠٨ حللت تعنى استقلال مصر الادارى من واقع معاهدة ١٨٤٠ والفرمانات المكملة لها « تأوضحت أنواع السيادة في القانون الدولى وذكرت أن بعض الفقهاء ومنهم برادلى ومارتنس يرون أن هناك نوعا جديدا من أنواع التبعية يسمى Etats mi اى حكومات لها سيادة نصفية ومثلوا على ذلك بحكومتى مصر والبلغار ولكن أنكر هذا الرأى بون نيس وهويتون وأدخلا الحكومات من هذا النوع في عداد الحكومات المسودة Vassal التى لها السيادة الداخلية بينما سيادتها الخارجية كلها أو بعضها تابعة للحكومة المتبوعة . وفي خطبة أحمد افندى عبد اللطيف بنادى حزب الأمة ذكر أن مصر خاضعة لسلطة تركيا الاسمية فقط Suzerainté وليست الفعلية Suverainté وان الحقوق التى خولتها المعاهدات والفرمانات انما هى لمصر وليست للعائلة المالكة منها الا التاج وحق الوراثة (الجريدة ٤٩٢ في ١٧ أكتوبر ١٩٠٨) .

(٤٦) الجريدة ٤٨٨ ، ٤٩٠ في ١٢ ، ١٤ أكتوبر ١٩٠٨ .

(٤٧) الجريدة ٤٣٠ في ٥ اغسطس ١٩٠٨ .

حدا للتدخل الاجنبى وللأوضاع التى لا تطاق والتى كان الاتراك يرزحون تحتها منذ تسلم عبد الحميد العرش (٤٨) .

وابتقبل حزب الامة انباء الثورة العثمانية التى اطاحت بعبد الحميد بفرح طاغ ، واعتبرت جريدته ذلك ، عيدا للحرية العثمانية ، ورات ان من الممكن ان تخلع الامة سلطانها ، « حتى ولو كان ولى امر المسلمين وحامى بيضة الدين وخليفة رب العالمين » (٤٩) لتشير بذلك الى امكانية خلع ذلك الاطار الذى يحتمى به السلطان باعتباره خليفة المسلمين .

التقطت الجريدة نصوصا من صحيفتى « الطان والتيمس » مؤداها ان حركة احرار العثمانيين حركة وطنية صرفة وليس لها اقل صبغة دينية وان زعماءها يرددون انهم تركوا اسم تركى او عربى او سورى ، وعملوا على اختيار لقب « عثمانى » المجبب لديهم ، ورحبت الجريدة بذلك اشد الترحيب بل وهنأت الوطن المصرى بهـذه الخطة المثلى ، ذلك ان اتباعها امنية كل عاقل مصرى محب لوطنه ، وطالبت المصريين باسم الوطنية ان يحذفوا لفظة « دين » من جرائدهم السياسية (٥٠) وحتى ذلك الحين كانت مقالات « الجريدة » حول « الجامعة » المصرية ذات طابع ادبى رومانسى احيانا يحمل معانى حب الوطن ، وتعريفاته المختلفة والتغنى بماضى مصر والمصريين ، والدعوة الى التعليم على الطريقة المصرية ونحو ذلك (٥١) اما المدلول السياسى فقد كانت تعالجه بشكل سلبى ، وذلك بابعاد هـذه الجامعة عما يبتلعها ويحتويها وهى الجـامعة الاسلامية ، ولكنها بازاء تلك التطورات اتخذت

---

(٤٨) راجع : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٤٩) الجريدة اعداد ٦٤٨ ، ٦٤٩ في ٢٨ ، ٢٩ ابريل ، ٦٥٠ في اول مايو ، ٧٢١ في ٢٢ يوليو ١٩٠٨ .

(٥٠) الجريدة ٤٣٠ في ٥ اغسطس ١٩٠٨ .

(٥١) تنشر مثلا خطبة احمد كمال التى تبحث في أهل المصريين وتكوينهم (٢٤١ في ٢٢ ديسمبر ١٩٠٧) وكذلك الدعوة الى التعليم باللغة العربية « وليس على الطريقة التى تعلمها ابناؤها اليوم الذين لا يلبثون أن يجيئوا تركا وبذلك لا يخدمون ابناء لغتهم » (الجريدة ٦٨٢ في ٨ يونيو ١٩٠٨) .

خطوات ايجابية تمثلت فى دعوتها للمصريين ان « عليكم انفسكم » فى الوقت الذى بدا فيه واضحا انصراف الدولة العثمانية إلى مشاكلها الخاصة واتخاذها اسلوبا يتفق ومصلحتها ، دون ولاياتها ، ومن ثم كانت دعوة لطفى السيد الى الجامعة المصرية قد استغرقت العديد من مقالاته ، واعتبر الجامعة الاسلامية جامعة مستحيلة ولم يكتف بمهاجمة فكرة الافغانى الحديثة عنها بل هاجم ايضا المعنى القديم للامة الاسلامية (٥٢) .

وقد بدات مواقف حزب الامة الايجابية نحو « الجامعة المصرية » تتعارض بشكل عملى مع السيادة العثمانية منذ سبتمبر عام ١٩٠٩ وحين استنكرت جريدته اشتغال الناس بتاليف جمعيات اكتتاب لاعانة البحرية العثمانية فى الوقت الذى لم تفكر فيه الدولة فى آداء واجبها نحو مصر ، وذكرت أن هذه المساعدة لا تنفع دولة غنية كبيرة ولكنها تنفع الاقليم الذى جمعت منه فى بناء مدرسة او ملجا او معمل زراعى ، وانه اذا كان الفرض منه هو الدفاع عن الامة العثمانية فالدفاع من مصر أوجب « عليكم انفسكم ، جودوا على بلادكم بالمال » (٥٣) .

وفى المقابل نادت صحيفة الحزب بتقوية الشخصية المصرية ، بكل الوسائل الممكنة « فارتباطنا بهذه الام الحنون ، ارض وادى النيل ، من امنع الاستحكامات التى حفظت شخصيتنا لليوم » (٥٤) وانشا لطفى السيد مقالتين عن « الجامعة المصرية » ركز فيهما على ان الجامعة المصرية تتالف من المصريين الاصليين ومن عناصر اخرى جديدة من الأجانب الذين حلوا مصر على سبيل القرار وجعلوها موضع سعيهم فصارت محل ثروتهم وموطن حياتهم فى الحال والاستقبال فاصبحوا بذلك مصريين ، ودعا الى ان يصبح كل من على ارض مصر من العثمانيين والأجانب ، ارباب الامتيازات ، مصريين

(٥٢) Wendell, Ch. The Evolution of the Egyptian National Image. p. 229.

(٥٣) الجريدة ٧٦٠ في ٧ سبتمبر ١٩٠٩ (عليكم انفسكم) .

(٥٤) الجريدة ٧٦٣ في ١١ سبتمبر ١٩٠٩ (الشخصية المصرية) .

متساوين فى الحقوق والواجبات (٥٥) ولم يكن لطفى فى هذا التعريف اكثر من مردد لما اورده كرومر فى تقاريره حول تعريف معنى المصرية فكرومر راى ان كلمة « مصرية » تعنى سكان مصر جميعا وكل من يتعاملون معها على اختلاف معتقداتهم واجناسهم (٥٦) ، وبهذا ادخل كافة القاطنين بمصر تحت هذا المعنى ، بل واقترح فى آخر تقرير له ان تكون الجنسية المصرية شاملة لكل من يقطنون مصر بغض النظر عن معتقداتهم واجناسهم او اصولهم ، واقترح انشاء مجلس شورى محلى يضم هذه الطوائف كلها ، على اعتبار ان ذلك يؤدى الى قيام وطنية مصرية لا تضر بالمصلحة الحقيقية لمصر (٥٧) .

وكانت القاعدة التى بنى عليها لطفى السيد هذا التعريف ، هى قاعدة « المنفعة » حيث لا يكون لمختلف المعتقدات او الاجناس اثر كثير او قليل فى السياسة المصرية العامة (٥٨) فالوطن عنده ، كما سبق ان عرفه ، آلة المصلحة ليس الا ، ومسقط الراس ليس لأحد بوطن اذا صار بلقعا وخوى او استحوذ عليه العدو وبقى ولم يعد للمرء فيه اهل ولا ملك (٥٩) فلا يعتبر الدين او الجنس اساسا من اسس تكونه ، وقد تساءل مرة « وهل هناك من يقول بأن مسلما مصريا يفضل منفعة تركيا على منفعة مصر اى على منفعته هو ؟ » (٦٠) ،

---

(٥٥) الجريدة ٧٨٤ في ٥ اكتوبر ١٩٠٩ (الجامعة المصرية) ويعلل فاروق ابو زيد ذلك بان هؤلاء الاجانب او هذه الارستقراطية هى في التحليل النهائى جزء من طبقة كبار ملاك الاراضى الذين اصدروا الجريدة ومنهم تشكل حزب الامة والذى كان من مصلحته توسيع قاعدة انصاره بضم الارستقراطية الاجنبية في مصر الى صفوفه (ازمة الفكر القومى في الصحافة المصرية ، ص ٦٨) وفي هذا تجاهل لحرص كبار الملاك المصريين على الا يزاحمهم الاجانب في الامتيازات الامر الذى قد يؤدى الى ابتلاع ثرواتهم ، كما انهم كانوا يحقدون على الارستقراطية التركية وينافسون عليها مراكزها .

(٥٦) Egypt. No. 1, 1903, p. 7.

(٥٧) Egypt, No 1, 1906, p. 8.

(٥٨) الجريدة ٧٨٤ في ٥ اكتوبر ١٩٠٩ (الجامعة المصرية) ولطفى السيد : قصة حياتى ، ص ١٣٩ .

(٥٩) الجريدة العدد الثانى ١٠ مارس ١٩٠٧ (الوطنية في مصر) .

(٦٠) الجريدة ٤٤٥ في ٢٣ اغسطس ١٩٠٨ وقد ارجع العقاد عدم منح لطفى السيد الرتبة التى انعم بها على صاحبى المؤيد واللواء الى مواقفه من السيادة التركية (حياة قلم ص ١٠٢) .

فالوطن مقول على أرض محدودة مقترنة بكتلة السكان القائمين عليها على سبيل القرار (٦١) ، اى انه ليس مسألة مجردة بل مجموعة من الناس يسكنون ارضا ذات حدود جغرافية واضحة تربط بينهم جميعا مصلحة مادية مشتركة، وكثيرا ما ردد لطفى السيد هذا المعنى وعندما تحدث الى صحيفة الطان باسم حزب الأمة ذكر ان « الدين لا دخل له فى سياستنا لاننا لاتبنى سياستنا على اى عقيدة مذهبية » (٦٢) .

ومن ثم كان هجومه على الجامعة الإسلامية ، وعلى من جعلوا انفسهم وبلادهم « على المشاع وسط مـــا يسمى خطأ بالجامعة الاســـلامية ، تلك الجامعة التى يوسع بعضهم فى معناها فيدخـــل فيـــه ان مصر وطن لكـــل مسلم » (٦٣) وذكر ان الجامعة الاسلامية دعوة استعمارية ، وطالب بان يحل محلها المذهب الوحيد المتفق مع اطماع كل امة لها وطن محدود وهـــو مذهب الوطنية ، وحتى عام ١٩١٣ كان لايزال يكرر دعوته للجامعة المصرية ، ويدعو المصريين الذين كسبوا الجنسية المصرية بالاقامة فى مصر ، ان يقطعوا ميولهم عما عدا مصر لأن الوطنية ـــ وهى حب الوطن ـــ لا تقبل الشرك (٦٤)، وهكذا كانت الأمة هى محور تفكيره ، وبمعنى الوطن القومى ثم بمعنى المصلحة الوطنية ، اما الجامعة الاسلامية فقد اعترف ضمنا الا صلة لها بقضايا العالم الحديث ، واعتبرها نوعا من الخيال مثيرا للسخرية حتى لقد اعتبر بعض الكتاب نبذ لطفى السيد لفكرة الجامعة الاسلامية فى مواجهة التعاطف الفطرى السائد معها ، عملا ينطوى على قدر كبير من الشجاعة باعتبارها دعـــوة تحررية (٦٥) .

* * *

(٦١) الجريدة ٧٨٤ في ٥ أكتوبر ١٩٠٩ .
(٦٢) اللواء ٢٢٩٥ في ٧ يونيو ١٩١٠ .
(٦٣) الجريدة ١٦٦٧ في ٢ سبتمبر ١٩١٢ .
(٦٤) Wendell ,op. cit. p. 230.
(٦٥) Safran, Egypt in Search of Political Community p. 95.

ومثلما هاجمت «الجريدة» المكتبين لمساعدة البحرية العثمانية عام ١٩٠٩ تحت شعار « عليكم أنفسكم » اختفت أشد الاحتجاج حين لم يقابل الخديوى بالحفاوة المعتادة عند زيارته للآستانة ، وذكرت أن مركز الخديوى فى مصر أسمى مقاما من مركز الصدر الأعظم ، وأن الخديوى متى خرج من مصر حاملا فوق رأسه شرف الأمة المصرية ، عتيقة المدنية ، والتاريخ ، لا يستطيع أن نقف جامدين لعدم الرعاية التى تقع لشخصه (٦٦) ، وغالت فى موقفها من تركيا أكثر حين انتقدت جماعة الاتحاد والترقى ، واعتبرتهم تلابى وزارات وعابثين بالدستور (٦٧) . وعندما وقعت الحرب الطرابلسية فى سبتمبر ١٩١١ بسبب غزو ايطاليا لطرابلس الغرب ، وقف لطفى السيد موقفا اتسق وفكره حول الوطنية المصرية والجامعة الاسلامية فقد مست هـذه الحرب علاقة مصر بالدولة فى الصميم ومنذ البداية شرع لطفى فى التنبيه الى أن كل حركة من حركات التشيع أو اظهار المساعدة للدولة من شأنه أن يزيد مركز مصر ارتباكا على ارتباكه ، وأن المصريين هم أحق الناس بالمساعدة (٦٨) .

وكانت انجلترا قد أصدرت اعلانا بحيادها خلال هذه الحرب صرح فيه السير ادوارد جراى بأنه يخالف اعلان هذا الحياد أن تسمح للدولة التى تختلها — مصر — أن تقدم عونا عسكريا لأى طرف (٦٩) وقد أشرف اللورد كتشنر على تنفيذ ذلك بنفسه ، وهدد بأن القوات التركية التى وصلت الى بورسعيد والسويس عن طريق اليمن سوف ينزع سلاحها اذا لم ترحل فى الوقت المناسب (٧٠) ، ولكن موقف مصر كان معتدا ، وقد اعلنت الحكومة التركية الحرب على ايطاليا ، وفى ذلك مطالبة صريحة من الدولة لمصر بالاستعداد لتنفيذ التكاليف المفروض عليها القيام بها للدولة (٧١) ، وفى شماتة

---

(٦٦) الجريدة ١٠٩٦ فى ١٨ اكتوبر ١٩١٠ .
(٦٧) الجريدة ٨٥٢ فى أول يناير ، فى ٢١ يونيو ١٩١٠ .
(٦٨) الجريدة ١٣٨٠ فى ٢٨ سبتمبر ١٩١١ .
(٦٩) FO. 407-177, No. 108, part LXXIV, 1911, p. 70.
(٧٠) FO. 407-177, No. 141, part LXXIV, 1911, p. 86 .
(٧١) الجريدة ١٣٨٦ فى ٥ اكتوبر ١٩١١ .

ظاهرة صورت « الجريدة » الموقف فقالت « ذو حق يطالبها بتنفيذه وذو قوة يمنعها من آداء الحق فكيف يمكن التوفيق ؟ الواجب على الحكومة المصرية أن تظهر انها مستعدة لتنفيذ واجباتها نحو تركيا حتى لا توصف بنقض العهد ، فاذا وقف الاحتلال بقوته فى طريق ذلك فهى ليست مسئولة عن فعل القوة التى لا تستطيع ردها ... » ، وسخرت من الدولة العثمانية قائلة كان من الواجب عليها أن تجلى الاحتلال عن مصر حفاظا لسيادتها وخروجا من جعل هذه السيادة الخارجية سيادة اسمية » (٧٢) .

وقد ابدت « الجريدة » بلسان الدكتور هيكل ، عطفا افلاطونيا على مصلحة الدولة ، شريطة أن يؤدى ذلك الى استقلال مصر استقلالا كاملا ، فذكرت « انا نود ان حدث شىء أن يكون لمصلحة الدولة العلية او على الاقل لا يضر بها ، وان صح أن نذهب بالأمانى بعيدا فانا نود أن تكون نتيجة ذلك الذى يحدث استقلال مصر استقلالا كاملا » (٧٣) هذا فى الوقت الذى جعلت فيه بقية الصحف الوطنية ، تقدم الأسانيد القانونية التى تبرر وقوف مصر الى جانب الدولة العثمانية كما استند الوطنيون فى تاييدهم للدولة الى أن بريطانيا لن تستطيع أن تؤثر على الحكومة وترغمها على الوقوف فى وجه الجيوش العثمانية تفاديا لغضب الامة المصرية (٧٤) فى الوقت الذى تدفقت فيه عواطف المصريين جميعا نحو الدولة بل واتخذت شكلا عمليا ، تمثل فى الاكتتاب لمعاونة الجيش العثمانى ، وتكوين جمعيات ولجان الهلال الأحمر وغيرها بما امتلأت به اعمدة الصحف ، حتى صحيفة حزب الأمة (٧٥) ، بينما عاد لطفى السيد الى شعار « عليكم انفسكم » بمقالات ثلاث تحت عنوان « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » ، تحدى بها كافة المشاعر ، وتجرد عن كل انفعال مستنكرا هذه الحركة التى ابتدات بفكرة الجهاد الدينى ، التى هى

---

(٧٢) الجريدة ، العدد السابق ، مقال (الحرب بين ايطاليا وتركيا والحكومة المصرية).

(٧٣) الجريدة ١٣٩١ في ١١ اكتوبر ١٩١١ .

(٧٤) جمال زكريا قاسم : موقف مصر من الحرب الطرابلسية ، مجلد ١٣ من المجلة التاريخية ، ص ٣١٦ — ٣٢١ .

(٧٥) انظر مثلا العدد ١٣٩٢ في ١٢ اكتوبر ١٩١١ وما بعده .

من اكبر الأخطار على مصر ، وانتهت بحركة جمع الاكتتابات للدولة ، وحذّر من أن كل حركة من حركات التشيع أو اظهار المساعدة الحربية الدينية من شأنه أن يزيد مركز مصر ارتباكا ، من ثم يجب على المصريين ألا يجعلوا الدين قاعدة لأعمالهم السياسية (٧٦) وعاد الى ترديد فكرة عدم شيوع مصر فى العالم الاسلامى وتميزها عما عداها من الأوطان الاسلامية (٧٧) ثم انتقل لطفى خلال مقالاته الى بيان استحالة مساعدة مصر للدولة وعدم جدواها « فهى لا تنفع الدولة وتضر بمركزها » (٧٨) ووصف حركة الاكتتاب بانها مظهر كاذب للجهاد الدينى واعانة الدولـــة ، ولو أراد الجمهور المساعدة الفعلية لقاطع التجارة الطليانية ، فذلك انفع فى المساعدة الحربية من القروش التى لم تصل الى عشرات الآلاف من الجنيهات (٧٩) واختتم لطفى السيد مقالاته بالتأكيد على الدعوة « للجامعة المصرية » وتقوية شخصيتها والعمل لمصلحة الأمة المصرية قبل كل شىء .

وقد روى لطفى السيد فى مذكراته انه وجد فى هذه الحرب فرصة لاعلان مصر استقلالها وتنصيب الخديوى ملكا عليها واستبدال العلم المصرى بالعلم العثمانى وذكر أن الخديوى قد سر بذلك ، ولكن كتشنر رأى أن الوقت غير مناسب ، وأن رشدى باشا قد ابلغه أن الخديوى رأى ان يؤلف وفد من سعد وعدلى ولطفى للذهاب الى لندن لتحقيق ذلك مع الحكومة الانجليزية على أن يدفع هو نفقات هذا الوفد ، وأن ثلاثتهم بدأوا الاجتماعات بالفعل ، فى الوقت الذى كان لطفى يكتب فيه مقالاته « سياسة المنافع » (٨٠) . يفهم من ذلك أن

---

(٧٦) الجريدة ١٣٩٩ فى ٢١ أكتوبر ١٩١١ .

(٧٧) الجريدة ١٤٠٠ فى ٢٢ أكتوبر ١٩١١ .

(٧٨) الجريدة ١٣٩٩ فى ٢١ أكتوبر ١٩١١ ، ١٤٠٠ فى ٢٢ أكتوبر ١٩١١ .

(٧٩) الجريدة ١٤٠١ فى ٢٣ أكتوبر ١٩١١ .

(٨٠) لطفى السيد : قصة حياتى ص ١٣٢ — ١٣٣ وقد أضاف أن الصحف المصرية كلها — عدا الجريدة — كانت تقف بالأمة كلها مع تركيا فتداول ثلاثتهم فى هذا الموقف العسير لان الأمة بهذا الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها لا يمكن أن تريد الانفصال عنها ولذا لم ينجح المشروع .

لطفى لقى تأييدا من الخديوى ، ورفضا غير قاطع من كتشنر ، ولكن الامـــة كلها كانت ضد هذه الحملة ، فتعرض لعاصفة من النقد المر اتهم خلالها بمناواة دولة الخلافة الاسلامية ، واتهم بالالحـــاد ، كما فشـــل فى اقناع اصدقائه السياسيين فى الحزب بمناصرته فى موقفه (٨١) كذلك لم يستطع الاعيان الوقوف فى صف لطفى ، صحيح انهم لا يميلون الى تركيا بحكم عدائهم لطبقة الاتراك ، وطموحهم لحكم مصر باعتبارهم ابناءها الخلص ، الا انهم رغـــم اقتناعهم بالمضمون السياسى لدعـــوة لطفى السيد لم يستطيعوا الاقتناع بالمضمون الدينى وهو نبذ الولاء لدولة الخلافة خاصة فى مواجهة ضغط الراى العام ، ولعلنا لانخطىء اذا اضفنا الى ذلك عاملا آخر وهو أن كتشنر لم يكن مشجعا لذلك ، والا ما وقفوا موقفا عكسيا خلال ازمة طابة حين ظهروا والانجليز فى معسكر واحد ، فلم يكن من السهل عليهم مواجهة الراى العام فى الوقت الذى لم يحصلوا فيه على تأييد كتشنر .

وقد تولت صحيفة « العلم » نشر رسائل احتجاج الكثير منهم وتبرؤهم من خطة الجريدة ولطفى السيد وحزب الأمة ، واتهموا الجريدة « بالطليانية » فى الوقت الذى امتلأت قوائم الاكتتاب للدولة بأسماء الكثير من اعيان حزب الأمة (٨٢) ولم يكن هناك نصير للطفى سوى هيئة تحرير الجريدة من الشباب ، وقد عهد بتحريرها فى غياب لطفى الى واحد منهم وهو الدكتور هيكل ، الذى شرع فى تناول الموقف السياسى من زاوية اخرى فتحدث عن هزائم الطليان ولم يتعرض لموقف مصر او حيادها . اغتبط بذلك رجال الجريدة ، فقـــد انجاهم هـــذا من سخط الراى العام من غـــير مخالفة لمـــا دعا اليه لطفى السيد (٨٣) . وقد نشر هيكل سلسلة مقالات تحت عنوان « وجهتنا السياسية» لا يسع قارئها الا ان يلمس بوضوح اتجاهات لطفى السيد ، وان بشكل غير

---

(٨١) محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة ج ١ ص ٥٠ — ٥١ (وخشى الحزب مواجهة الراى العام فنكص ولم يتابع لطفى ولم يؤازره فاضطر الى الانسحاب لقريته) .

(٨٢) العلم ٥٤٠ ، ٥٤٤ في ٢٧ ، ٣١ أكتوبر ١٩١١ — وقد اسسست ملك حفنى ناصف بجمعية لتمريض الجيش العثمانى على غرار الصليب الاحمر (آثار باحثة البادية ، ص ٥١) .

(٨٣) هيكل : مذكرات في السياسة ج ١ ، ص ٥١ .

مباشر أحيانا عندما يتحدث عن تركيا ، وبشكل مباشر حين يتحدث عن القومية المصرية وقد عرض هيكل مسألة استقلال مصر على هذا النحو : ان مصر انما تخرج انجلترا بواحدة من حالتين : اما بقوتنا نحن واما بتسوية دولية لقد آن الآوان لان يقال للمصريين « الاحسن أن تحلوا مسائلكم » (٨٤) وبشأن استاذه أوضح الا صلة بين الوحدة القومية والخلافات العقائدية ، وذكر ان تركيا نفسها أول من تخلى عنا ثم هى أول من استنجد الدول ضدنا ، كما انها تخلت عنا أخيرا عند دخول الانجليز فمن الحمق أن يوجه مصرى وجهه لغير بلاده (٨٥) ، وزاد على ذلك بالدعوة الى تمصير الأشياء المادية والمعنوية حتى لا يجيء يوم يزيد فيه المصريون والمتمصرون ويزيد فى الوقت عينه فقر البلاد فلا يتسنى لهؤلاء ان يعيشوا الا عالة على الأجنبى وبالتالى عبيدا له (٨٦) .

وفيما يشبه الاعتذار ، نشرت الجريدة أخبار ما أسمته بانتصارات الجيش العثمانى على صدر صفحاتها بعناوين ضخمة ، بل وسمت احدى انتصاراته بانتصار « عدوة الثانى » . وهنأت اخوانها العثمانيين بذلك (٨٧) ، حاولت التوفيق ، بلسان صالح بك هيكل ، بين مصالح مصر ومصالح جيرانها فتساعد مصر جيرانها واخوانها فى الانسانية والدين مع الاحتفاظ بمصريتها فى النهاية (٨٨) . وقد شجع على نمو هذا الاتجاه أن بدا أفق الدولة العثمانية يحمل علامات الانهيار ، فهناك ثورة فى البانيا وفتنة عسكرية ، وأخبار سيئة عن الكرك وحوران ، وخروج الادريسى عليها ورفع العلم الأجنبى على ثغور

---

(٨٤) الجريدة ١٤٠٣ في ٢٥ أكتوبر ١٩١١ .

(٨٥) الجريدة ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ في ٢٩ ، ٣٠ أكتوبر ١٩١١ .

(٨٦) الجريدة ١٤٠٩ في أول نوفمبر ١٩١١ .

(٨٧) الجريدة ١٤٠٨ في ٣١ أكتوبر ١٩١١ وقد هزمت ايطاليا في هذه الموقعة حين تقدمت الى الحبشة للاستيلاء عليها بعد استيلائها على ارتريا والصومال ولكن امبراطور الحبشة « منليك » تصدى للقوات الايطالية وألحق بها هزيمة انكراء في عدوة في أول مارس ١٨٩٦ وقتل وأسر منها ٦ آلاف وكانت هذه الهزيمة نهاية حلم ايطاليا لفتح الحبشة (جرانت وتمبرلى ، تاريخ أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج ٢ ، ص ٣٧١) .

(٨٨) الجريدة ١٤٢٦ في ٢١ نوفمبر ١٩١١ (وهو عم الدكتور محمد حسين هيكل) .

طرابلس ودرنة وجيزر الأرخبيل وهياج كريت والخوف الكبير فى مقدونيا والاتفاق السرى بين بعض دول البلقان (٨٩) هيأت هذه المتاعب والمؤشرات اذهان المصريين للايمان بأن الضعف بدأ يستشرى فى كيان الدولة ، واتاحت للطفى السيد آذانا أعادته الى الجريدة ، فتوجه بأحاديثه الى الشباب ، مطالبا اياهم بالسعى لخير مصر ، دون غيرها ، فلا يكونون آلات فى يد جمعية الاتحاد والترقى التى صرحت من أول يوم بأن مصر ليست داخلة ضمن أعمالها (٩٠) وربط لطفى بين العمل للاستقلال وضرورته وبين معنى القومية المصرية ، فالاستقلال فى نظره هو المعنى الوحيد للوجود ومناط الأمل فى الحياة القومية (٩١) .

ولكن الحرب البلقانية كانت بمثابة اختبار جديد لجماعة الجريدة ، فعندما بدت نذرها وقفت الجريدة موقفا مزدوجا بعض الشىء ، فبينما عادت الى رفع شعار « اعملوا لانفسكم » والاعتماد على النفس فى بلوغ الاستقلال (٩٢) لايرى لطفى السيد غضاضة بين ذلك وبين ان يعلن الباب العالى مصر بالحرب « فليس بعيدا ان يكون نشر الحكومة المصرية لبلاغ وردها من الباب العالى مقدمة برجوع الحال فى مصر الى القاعدة القانونية ، وقطع العلاقات بينها وبين الجبل الأسود وحكومات البلقان اذا شهرت الحرب نهائيا ... فاذا كان هناك عذر للحياد فى الحرب الطليانية فالعذر غير واضح فى هذه الحرب » (٩٣) ولعله كان يعتذر ، بهذا الموقف المزدوج ، عن موقفه السابق ، وقد دعم الدكتور هيكل موقفه هذا بالاشارة الى صليبية هذه الحرب ، وأبان أن السلطان اذا نادى المسلمين باسم الدين فهو دائما فى حدود وظيفته فى حين أن هذه الأمم — المتحاربة مع الدولة — ليس لها من الرئاسة الدينى شىء(٩٤)

---

(٨٩) الجريدة ١٦٢٣ في ١١ يوليو ١٩١٢ (لا عيد ولا احتفال للدستور العثماني في مصر) .

(٩٠) الجريدة ١٦٦٧ في ٢ سبتمبر ١٩١٢ .

(٩١) العدد السابق .

(٩٢) الجريدة ١٦٧٣ في ٩ سبتمبر ١٩١٢ .

(٩٣) الجريدة ١٧٠٣ في ١٧ أكتوبر ١٩١٢ .

(٩٤) الجريدة ١٧٠٨ في ٢٣ أكتوبر ١٩١٢ .

وبذلك أعطت الجريدة تبريرا لدعوة السلطان للجهاد الدينى ، وهو أمر استنكرته قبل ذلك بعام ، هذا بينما واكبت موقف أعيان الحزب الذين أيدوا الدولة ونشرت ، بصدر رحب ، أخبار تبرعاتهم لجمعيات الهلال الأحمر العثمانى لحساب البحرية العثمانية (٩٥) ، كما شكلت لجان كثيرة تضم الكثير من أعضاء حزب الأمة فى أسيوط والشرقية وغيرها ، لاعانة الدولة العلية ونشرت الجريدة قوائم تبرعاتهم ، مشيدة ببسالة الجندى العثمانى (٩٦) .

وعموما وقفت مصر على الحياد فى هذه الحرب ، مثلما فعلت ابان الحرب الطرابلسية ، وان كان الأهالى قد اظهروا ميلهم نحو المحاربين المسلمين (٩٧) كما تسلم الحكم فى أوائل عام ١٩١٣ ، والحرب ما تزال دائرة ، فئة من الضباط الأتراك ذوى نزعة اكثر شوفينية فحكموا الامبراطورية حتى انهيارها ، وقد تغيرت فى غضون ذلك معتقدات القوميين العثمانيين أنفسهم ، فانحلت معانى فكرة الدولة والجماعة الدينية ، وتحولت القومية العثمانية الى قومية تركية (٩٨) ومما يدل على ذلك أن رشيد رضا غادر الآستانة الى القاهرة معلنا أن التعاون مع حكومة تركيا الفتاة بات أمرا مستحيلا ذلك أن المناخ السياسى اصبح معاديا لفكرة الجامعة السياسية أو الرابطة العثمانية (٩٩) .

وقد تهيأ بذلك مناخ طيب لجماعة الجريدة للحديث عن « الجنسية المصرية التى اعطتها تعريفا محددا وضعت به من ينتمون الى أصول تركية او عربية أو قبطية على قدم واحدة من حيث احتواء القومية المصرية لهم .

---

(٩٥) وقد تبرع محمود باشا سليمان بمبلغ مائة جنيه الى الآستانة لمساعدة جمعية الهلال الاحمر ، وكذلك حسن باشا مذكور ومحمد بك مذكور ، أما على شعراوى فقد تبرع بخمسمائة جنيه لحساب الحربية العثمانية وكذا بشرى بك حنا بمبلغ مائتى جنيه (الجريدة ١٧١٠ في ٢٩ اكتوبر ، ١٧١٢ في ٣١ اكتوبر ١٩١٢) .

(٩٦) أما لجان أسيوط فقد ترأسها عبد الرحمن باشا النبيسى بينما ترأس مصطفى خليل باشا لجان الشرقية (الجريدة ١٧٢٠ ، ١٧٢١ في ٦ ، ٧ نوفمبر ١٩١٢) .

(٩٧) Egypt, No. 1, 1912, p. 1.

(٩٨) البرت حوراني : الفكر العربى فى عصر النهضة ، ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

(٩٩) FO. 407-175, No. 123, part LXXII, p. 201.

وذكرت ان التفريق بين هذا وذاك مع بعده عن الصواب ، أضر ما يكون على القومية المصرية «اننا لو ظللنا نقول تركى وفلاح او مصرى عربى أو مصرى قبطى لساعدنا الزمان على النيل منا ، والفت فى عضدنا والعبث بتضامننا » (١٠٠) وبذلك نبذت فى هذا التعريف ما حاول لطفى السيد ادخاله تحت شعار الجامعة المصرية من عناصر أوروبية أو أجانب ارباب امتيازات ، واكتفت بذوى الأصول التركية ، ولعل ذلك راجع الى اقتناعها بأن هؤلاء قد باتوا يساوون المصريين الخلصاء ، ان لم يفقهم المصريون ، واعترفت بأنه كان هناك تفريق بين المصريين والشراكسة قبيل الثورة العرابية ولكن ذهب الزمان بذلك واصبح الجميع سواء (١٠١) .

ولم يكن هذا هو التغيير الوحيد للجريدة بهذا الخصوص ، فقد كفت حديثها عن قاعدة المنفعة التى وضعها لطفى السيد ، والتى ضم على اساسها كل الفئات السابقة الى الجامعة المصرية . وركزت على فكرة « الولاء لمصر » ولاء من يقيمون على ارضها سواء كانوا من اصول فلاحية أو قبطية أو عربية أو تركية ، وعملت على تنمية هذه الفكرة ، فالمصرى مهما كانت أصوله تركية او شركسية لا يكون مصريا اذا لم يكن ولاؤه لمصر اولا واخيرا ، أو اذا تعددت الأوطان لديه ، واستنكرت من يقول أن أبى ارناؤدى وأمى شركسية وكل من يحاول ارجاع نسبه الى اصل غير مصرى (١٠٢) . وقد ابانت ان التعبير عن هذا الولاء يكمن فى ان يرى المصرى فى بلده متأخرة فى الحضارة ، وانها تحتاج الى مناصرته وجده ونشاطه لانهاضها وبعث قوتها ، وصرف كل عواطفه لخيرها (١٠٣) ومنذ بداية الحرب الأولى كانت الجريدة تدرى مدى تحمس المصريين باسم الجامعة الاسلامية ، حين بدا ان دخول تركيا الحرب ضد

---

(١٠٠) الجريدة ٢١١٦ فى ٢٤ فبراير ١٩١٤ (الجنسية المصرية « بدون توقيع ») .

(١٠١) المصدر السابق (ونلاحظ فى هذه الفترة تولى الشباب من تلاميذ لطفى الذين تلقوا تعليما غربيا واسعا وعميقا ، كتابة افتتاحيات الجريدة وتحرير مقالاتها ، كما أنهم هم الذين تولوا الخوض فى مسائل القومية منذ توقف لطفى فى غضون الحرب الطرابلسية) .

(١٠٢) الجريدة ٢١٨٥ فى ١٧ مايو ١٩١٤ (المصرية بتوقيع مصرى) .

(١٠٣) الجريدة ٢٢٩٣ فى ٢١ سبتمبر ١٩١٤ (وحى المصرية لمنصور فهمى) .

انجلترا لا يعدو ان يكون مسألة وقت ، وقد بزح الكثيرون بالفعل الى الآستانة اعتقادا منهم بانهم يفيدونها واثقين من ان تركيا التى سلمت لمصر بالاستقلال الذاتى يسهل الحصول منها على الاستقلال التام متى كسبت الحرب (١٠٤) ، وكان معظم هؤلاء من زعامات الحزب الوطنى ، وقد اتفق وفد منهم مع الخديوى فى سبتمبر عام ١٩١٤ على الاشتراك فى الجملة التركية المزمع ارسالها الى مصر ، كما اقترح الخديوى دعوة احد اقطاب حزب الامة للاشتراك فى هذا الوفد واقترح آخرون من الحزب الوطنى هذا الأمر (١٠٥) ، ولكن لم يتوصل الى اتفاق من هذا النوع ، كما لم نعرف واحدا من حزب الامة قد انضم الى هذا التجمع ، بل على العكس رفعت الجريدة مرة اخرى ، شعار « عليكم انفسكم » فهى أولى بتلك القوى الضائعة والوقت المنصرف فى الكلام باخبار الغير (١٠٦) .وقد اعترف محمد فريد أن هذا الوفد كان من قادهم شدة حبهم للدولة والاسلام الى نسيان مصر ومصالحها فأصبحوا يقولون ان مصر للمسلمين لا للمصريين (١٠٧) .

لكن أين كان زعماء حزب الامة ، الذى كانت تنادى جريدته بالولاء للقومية المصرية اثناء هذه الأحداث ؟ فمثلا نرى ان رونالد ستورز ، السيكرتير الثانى لدار الوكالة البريطانية قد استخدم على شعراوى وكيل الحزب فى اقناع الأمير حسين كامل بقبول عرش مصر من يد الانجليز (١٠٨) كما ذهب لطفى السيد ، لسان الحزب ، عندما دخلت تركيا الحرب واعلنت انجلترا

---

(١٠٤) احمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى ، ص ٨٩ .

(١٠٥) اقترح يوسف صديق دعوة سعد زغلول ولكنهم استبعدوا ذلك لقرب موعد افتتاح الجمعية التشريعية وانه ربما منعه الانجليز من الرجوع الى مصر بعد حضوره واقترح سيفا كامل دعوة عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وعلوى الجزار فقال الخديو ان فهمى مريض وشعراوى ربما استصغر ان يأتى مع الجزار ولم يتفقوا على أحد من حزب الامة ، انظر احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ، م ٢ ، ص ٢٧٥ ، ٢٨٤ .

(١٠٦) الجريدة ٢٢٩٣ فى ٢١ سبتمبر ١٩١٤ .

(١٠٧) مذكرات محمد فريد ، القسم الثانى ، ك ١ ، ص ١٠٦ .

(١٠٨) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ، الجزء الثانى ص ٣١ ، هـ ٢ .

الاحكام العرفية — ذهب الى حد أن اقترح على صديقيه رشدى وعدلى ، السعى لأن تعترف انجلترا باستقلال مصر على ان تدخل مصر معها الحرب ضد تركيا ، وقد عرضت هذه الفكرة على السير جراهام مستشار الداخلية الانجليزى ثم عرضت على ستورز ، بحضور نجيب غالى ، وكيل الخارجية ، بل ووضع الجميع صورة لذلك (١٠٩) بيد ان انجلترا رفضت هذا كله ، فقد كانت واثقة من انها ستوجه مصر الاتجاه الذى تريده دون اى التزام من جانبها بشأن استقلال مصر .

ووقف ابراهيم الهلباوى موقفا مشابها عندما اقترح على ستورز — الذى كان يقيم فى طابق بمنزله — وجراهام ، بحضور سعد زغلول ، ان تكتفى انجلترا بأن تأخذ ما لتركيا فى مصر من الحقوق ، فأجابه ستورز بأن ذلك سيثير الراى العام فطمأنه الهلباوى قائلا : معنى ذلك انه لن يصبح لكم جيش فى مصر وستتخلون عن وظائف الحكومة (١١٠) متجاهلا بذلك أن هذه السيادة الاسمية للدولة لها سند قانونى تعترف به الدول ، وأن من حق تركيا بمقتضى ذلك ان تستخدم مصر فى حروبها فكأنه يريد اعطاء الاحتلال صفة قانونية ، اعتمادا على ظروف مؤقتة تتعلق بضعف سيادة الدولة العثمانية على مصر والتى كان الاحتلال ذاته ، من اكبر أسباب ضعفها .

وبينما كان ذلك موقف بعض زعامات الحزب ، نجد ان كتاب الجريدة من جيل الشباب ، يمثلهم الدكتور هيكل ، الذى انشأ يكتب افتتاحياتها بعد ان كسر لطفى السيد قلمه — على حد تعبيره — وعاد الى قريته يائسا بعد رفض بريطانيا لمشروع المعاهدة الذى اقترحه — نجدهم يرجعون نغمة « منافعنا وعواطفنا » ويتخفون وراء المصلحة المصرية ، مفصحين عن موقف

---

(١٠٩) لطفى السيد : قصة حياتى ص ١٦٣ ، ١٦٥ — ١٦٦ وقد أجاب جراهام لطفى بقوله « يا صاحبى نحن نعرفكم كما تعرفون انفسكم فحين ظهور أول طربوش تركى فى القناة تتركونا وتجرون وراءه ... » .

(١١٠) مذكرات الهلباوى ، ص ١٠١ — ١٠٢ واضاف « وانا راض أيضا بأن يدعو ائمة المسلمين فى بلدى بأن يبدلوا الخطب فى صلاة الجمعة اذا اقتضى الحال اسم ملك انجلترا باسم خليفة العثمانيين ان صح انكم مخلصون فيما تقولون ... » .

الحزب من تركيا تارة وممهدين لفكرة الاتجاه نحو بريطانيا طلبا للاستقلال على يدها تارة أخرى « فالمصرى يميل للدول الأجنبية على نسبة ما عند هذه الدول من الميل لمصر ... وها لدينا بلاغ الوكالة البريطانية الذى ينصح الناس بالابقاء على أنفسهم وأموالهم وبالنظر فى مصالحهم ومصالح مصر ، وان فى ذلك لعظة بالغة ... » (١١١) .

وباعلان الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ زالت السيادة العثمانية فعلا ، وعزل عباس حلمى من منصبه بعد ذلك بيوم ، وقد تعهدت بريطانيا بترقية شئون مصر المختلفة والسير بها فى طريق الحكم الذاتى ، ولم تصرح بأيلولة الحقوق التى كانت لسلطات تركيا وخديوى مصر الى بريطانيا بعد الغاء السيادة العثمانية ، وكان هذا التريث بهدف معرفة صدى ذلك فى نفوس المصريين قبل الانتقال الى خطوة تالية ، ثم تحركت حكومة رشدى فقطعت آخر خيط من الروابط المتبقية لمصر مع تركيا بالغاء وظيفة قاضى قضاة مصر (١١٢) .

وهكذا يبدو صحيحا أن ظهور « الجريدة » من وجهة نظر اصحابها — كان أول موقف عملى معارض لممارسة الدولة العثمانية لسيادتها على مصر ، كما يؤيد هذا المعنى نشاط الحزب فيما بعد فى التركيز على تنمية فكرة الوطنية المصرية أو الجامعة المصرية كبديل للجامعة الاسلامية التى كانت سائدة فى عصرهم وكان نشاط الحزب منذ البداية واضحا بالتأكيد على ابراز الهوة بين مصلحة مصر ومصلحة الدولة العثمانية ، متخذا من احداث الدولة الداخلية والخارجية فرصا لذلك ابتداء من حركة تركيا الفتاة (١٩٠٨) وحتى

---

(١١١) الجريدة ٢٣٠٢ فى أول اكتوبر ١٩١٤ (منافعنا وعواطفنا لمحمد حسين هيكل المحامى) هذا بالرغم من أن هيكل فى مذكراته جـ ١ ص ٦٥ — ٦٧ يقول انه قد احتج على لطفى السيد حين روج فكرة تأييد مصر لانجلترا فى الحرب ولمشروع المعاهدة .

(١١٢) انظر : لاشين : سعد زغلول ، جـ ٢ ، ص ٣٢ — ٣٣ ، عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى ، ص ٩٢ ، غربال : تاريخ المفاوضات جـ ١ ، ص ٤٠

حزوب الدولة فى طرابلس والبلقان وقد ظهر الحزب وكأنه يناضل وحده فى هذا الميدان ، مخالفا بذلك الراى العام ، الذى أثر ضغطه فى صرف الكثيرين عن الحزب ، حتى لقد بدا لطفى السيد وكأنه وحده فى هذا الميدان ، وجاء اعلان الحماية البريطانية على مصر وزوال السيادة العثمانية عنها ليوفر على الجميع حركتهم فى هذا الشأن .

* * *

obeikandl.com